حديقة المقتطف

كواكب الادب الاسباني

لوبي ده فيجا

(١٥٦٢—١٦٣٥)

لوپي ده فيجا

(١٥٦٢ — ١٦٣٥)

احتفلت اسبانيا في العام الماضي ، وشاركتها البلدان الاميركية الاسبانية الثقافة وجميع البلدان التي عرفت الادب الاسباني معرفة درس واطلاع فقط بانقضاء ثلاثة قرون على وفاة الشاعر والمؤلف الدرامي الاسباني المشهور لوپي ده فيجا Lope de Vega فألقيت المحاضرات عنهُ وعن شعره في أشهر جامعات العالم ومثلت طائفة مختارة من مسرحياته على غير مسرح واحد وفي غير بلاد واحدة

يقال عدد الروايات المسرحية التي ألفها هذا الشاعر الفذُّ في خصبه ووفرة انتاجه من ١٥٠٠ رواية الى ١٨٠٠ رواية يضاف اليها مئات من الفصول والمقطوعات . بل انك لتقرأ واحداً وعشرين مجلداً كبيراً من مجموعة آثاره وافية قبل ان تصل الى المسرحيات . لذلك وصفهُ سرڤانتس مؤلف دون كيشوت بقوله « فلتة الطبيعة » ولم يكن من النادر ان يوصف بقولهم « لوپي العلوي » اشارة الى لبسه المسوح وانتظامه في سلك الكهنوت بعد وفاة زوجته الثانية سنة ١٦١٢

كان ده فيجا حينئذٍ في أوج مجده الأدبي . ونحن اذ ننظر اليه من خلال ثلاثة قرون نعرف ان مكانتهُ الأدبية مقرونة بكتاباته المسرحية . ولكنهُ كان في نظر قومه طوداً من الادب تشبهُ مكانتهُ في أسبانيا مكانة ڤولتير في فرنسا في عصره . لقد طوى النسيان قصائده القروسية والريفية وأناشيدهُ وأغانيهُ ، بعد ان أحاطت اسمهُ في حياته وبعد مماته بهالة من المجد ، مكّنتهُ في ذلك العصر الاقطاعي من ان يعامل أسياده وأمراءه معاملة الندّ للندّ . فدوق سسّا — وكان يغدق عليه المال ويحميه من سنة ١٦٠٥ الى وقت وفاته — كان صديقه الحميم ، ورسائل لوپي اليه تدلُّ على رفع الكلفة بينهما لولا عبارات قليلة هنا وهناك ، كان من المألوف استعمالها في مخاطبة الاشراف

لما ولد لوپي ده ڤيجا كان قد انقضت سبعون سنة على اكتشاف العالم الجديد. وكانت المستعمرات الاسبانية ممتدة في شرق الارض وغربها فكانت امبراطوريتها كالامبراطورية البريطانية في هذا العصر، لا تغيب عنها الشمس. وكان مقام اسبانيا الدولي في المرتبة العليا. حتى كان الناس من شتى البلدان يفاخرون بمعرفة اللغة الاسبانية والتحدث بها. وكذلك تمهدت الطريق لظهور شاعر عظيم يتغنى بامجاد هذه الدولة العظيمة وحضارتها، وكان لوپي ذلك الشاعر

ولد في ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٦٢ وكان والده قد احترف تطريز الاثواب وزركشتها بعدما هبط مدريد من الجنود الاسبانية في مناطحة استوريا، فكان من صغره فلتة من فلتات الذكاء الانساني. ففي الخامسة من عمره كان يستطيع ان يقرأ اللغة اللاتينية الايطالية ولما كان لا يستطيع الكتابة في هذا السن، كان يملي اشعاره على رفاقه في المدرسة ويجزيهم عن تعبهم بجانب من فطوره. فلما اصبح قادراً على استعمال الريشة لرسم الكلمات، انبجس نبع الشعر من صدره فكتب وهو في الحادية عشرة من عمره مسرحيته الاولى وكانت رواية رعية ثم تبعتها مسرحيتان اخريان وهو في الثانية عشرة من عمره. ثم تلت ذلك مسرحية ذات ثلاثة فصول، فجرى على ذلك في سائر مسرحياته واصبح تأليف المسرحية من ثلاثة فصول تقليداً تبعه الادباء في اوربا حتى اواسط القرن الثامن عشر

ولعل اول ما يخطر لقارىء ان يسأل: لماذا انحصرت عبقرية لوپي ده ڤيجا في حدود بلاده فلم ترسل اشعتها الى ما وراءها. ولماذا انكرت الاجيال التالية عليه تلك الشهرة العالمية التي اسبغتها على مواطنه سرفانتس

والواقع ان شهرته لم تنحصر كل الانحصار في حدود بلاده. فقد كان زوار مدريد من كبار الاجانب يسعون اليه وكان القصاد الرسوليون يزورونه حاملين تحيات سيدهم الاعلى في روما. بل ان البابا اربان الثامن ارسل اليه شهادة تحمل لقب دكتور في اللاهوت في سنة ١٦٢٧. ولكنه مع ذلك لم يصب نصيباً من الشهرة العالمية المتجددة الذكر مع كل جيل، على نحو ما اصاب سرفانتس بكتابه دون كيشوت. وليس الباعث على ذلك في رأي النقاد ان ده ڤيجا كان ادنى مقاماً من سرفانتس في عالم الادب. الا ان عبقريته وان كانت من طبقة عبقرية ندّه كانت تختلف عنها.

فسرفانتس كان فيلسوفاً واقعيًّا فكان التزّ الغالب الطبيعي الذي تفرّع فيه مآثر عبقريته وأما ده فيجا فكان رجلاً تتقاذفهُ العاطفة العنيفة والانفعال الشديد يملي مرجل شعوره غليانًا دائمًا وهو يطلب متنفساً فلا يجد متنفساً الاَّ في الشعر الطلق السمح القوي المتدفق. هنا بين سطور قصائده وفي حوار مسرحياته رسم الحب والاسف والحقد والغيرة والامل والطموح. فقد عاش طوال حياته وكأنهُ يجنح محلق في سماء لا تمتُّ الى الحقيقة الواقعة بصلة. فالشعر في كيانه والنفس كانا توأمين. فمن الطبيعي ان تحضر شهرة شاعر فذّ لهُ من بلاده وأدبها المتازّ سمات الابداع والرجع الخاص. ذلك ان رجّة الشعر أصعب بما لا يقاس من رجّة النثر، وقراءة الشعر أصعب على النفس من قراءة النثر المتلألىء بدور الحكمة العالية أو النقد اللاذع والنكتة البارعة

قال مريميه ما معناه: أن لوپي هو المثل الاتم على روح عصره تقاذفت نفسه ضروب من الشعور المتباين من الصوفية الى الخروسية، ومن الورع الى الغزل، ومن التهور الى الخفّة. لقد احسَّ في قرارة نفسه، كلَّ ما أحسَّتهُ النفوس في عصره، وعاش حياة متنقلة من الحرب الى البيت الى الكنيسة، لذلك استطاع ان يصور أتمّ تصوير مهزلة الحياة الانسانية المفجعة، ويفوق في تصويرها ايًّا آخر من الكتّاب »

مسرحياته وفنه

لم يبق من مآثر عبقريته على مرّ الزمن غير ٤٧٠ مسرحية و ٥٠ مقطعاً. فاذا حاول الباحث أن يصنفها عجز عن ذلك، لان تعريف المهازل والمآسي لا ينطبق عليها ولذلك يفضّل الاسبانيون ان يقسموها ثلاثة اقسام اولها قسم المسرحيات التي تعالج موضوعاً منتزعاً من الحياة اليومية واشخاصها من الناس الذين نراهم ونعاشرهم كلَّ يوم. وثانيها مسرحيات اشخاصها ملوك وامراء. وثالثها مسرحيات القديسين

ولكن هذا التقسيم لا يشفي غليلاً، ولا هو يتناول اعمال ده فيجا من اساسها، ذلك إن الصفة الغالبة على مسرحياته حوك الدسائس، ولا سيما ما كان منها خاصًّا بالحبّ. وفيها تبرز ملكاتهُ وبراعتهُ وخيالهُ لان هذا النمط من مسرحياته كان من بنات خياله. وقد كان غرضهُ ان يهيج الناس ويحرّكهم لا ان يطهرهم ويعظهم. وقد بسط طريقتهُ في قصيدة نظمها سنة ١٦٠٩ عنوانها الفن الجديد لتأليف المهازل او الفن

المسرحي الجديد . ومما قالهُ فيها « تأمرني بان اضع قواعد الفن الدرامي . . . . . ولكنني لم أؤلف الاَّ وانا منهك قواعد هذا الفن . فعندما اريد ان أؤلف مهزلة (كوميديا) اضع جميع القواعد في خزانة واقفلها ثلاثاً واكتب وفقاً للقواعد التي اخترعها اولئك الذين يريدون ان يفوزوا بتصفيق الجماهير . ولما كان الجمهور هو الذي يدفع ثمن هذه السخافات فمن العدل ان نقدم لهُ ما يطلبهُ » . ولكنهُ مع ذلك ، اهمَّ في فقرات تالية بعد اعرابه عن احترامه للقدماء واعتراضه على ذوق المحدثين (في عصره) بوضع قواعد يراها اساسية في الفن المسرحي اهمها :

١ — مزج المضحك بالمحزن ٢ — وحدة العمل التي يجب ان يقلل المؤلف جهدهُ من الحوادث . ٣ — جعل الدراما في اقصر وقت ممكن . ٤ — جعل الدراما ثلاثة فصول على ان تكون حوادث كل فصل — اذا امكن — مما يقع في يوم اي جعل الوقت الذي تستغرقهُ حوادث الدراما ثلاثة ايام . ٥ — ان لا تعرف نهاية الدراما الاَّ في المشهد الاخير . ومن اقرانه إخدع المشاهد بالاشارة الى نتائج مختلفة هي غير النتيجة الحقيقية . ٦ — ليكن الاسلوب سهلاً على ان يرتفع عندما يتكلم البطل او من كان صاحب مقام في مواقف الارشاد او التحذير

ولو لم يكن لوبي مسرحيًّا مطبوعاً لما أجدتهُ جميع قواعد الدنيا . ففي مسرحيته « الملك خير القضاة » يمزج بريشة ساحرة بين المضحك والمؤسي ، وفي مسرحيته « المحبوب المجهول » يسير في تفصيل حبكة الرواية وكأنهُ من ابرع الكتاب المعاصرين في قصص الجرائم وكشفها . وفي مسرحيته « اكتشاف العالم الجديد » يسيطر بفهمه وخياله على موضوع متسع النواحي ، لا يمكن حصرهُ او حصر جزء منهُ في حدود فصول ثلاثة

الملك خير القضاة

موضوع هذه الرواية منتزع من تاريخ اسبانيا . ولكنهُ حوَّل القصة بسحر فنه من حكاية رعية بسيطة يظهر فيها عدل الملوك ، الى مسرحية اخاذة فيها حب وشهوة ، وفيها توسل وظلم ، وجنون وحكمة ، وفيها فوق كل هذا عدل الملك الفونسو السابع كان سانشا فلاحاً ينتمي الى اسرة قديمة نبيلة . وكان يحبُّ الفير ابنة سيده

الفلاح نوتو . فتبادله الثير الحبَّ وتسمح لهُ ان يطلب يدها من ابيها . فيوافق هذا على الزواج ، لانهُ يحبُّ الشاب ويعطف عليهِ ويرى فيهِ فضائل الاجتهاد وحب العمل. ولكنهُ يطلب اليهِ ان يذهب الى سيّد المقاطعة دون تلّو ده نيرا . وان يطلب اليهِ من باب الخضوع الاقطاعي ، ان يأذن لهُ في زوج الثير

فيذهب سائلا الى ده تلو على رغم منهُ . فاذا السيّد شاب يقطن قصراً فخماً مع شقيقتهِ فليسيانا ولكنهُ غير محبوب ولا محترم من مزارعيهِ . فيوافق السيّد على طلب الفلاح ويمنحهُ الاذن في الحال ، ويعدهُ بانهُ يقدم اليهِ هدية زواج ، مؤلفة من عشرين بقرة ومائة رأس غنم . بل علاوة على ذلك تنازل ووعد بان يشرّف حفلة الزواج في الليلة نفسها. وكان يصحبهُ في زيارتهِ هذه رجل يدعى يلاج وهو ماجن ابدع المؤلف في تصويره اذ جعل حديثهُ خليطاً من الانوال الحكيمة والمجون ، السخيف على نحو ما نجد في بعض مسرحيّات شكسبير

تمت معدّات الحفلة واقبل الدون تلو في عربتهِ ولم يبق الاّ ان يصل القسيس لاتمام عقد الزواج . ولكن دون تلو يرى الثير ، ففتنهُ جمالها ، فيبتدع عذراً لتأجيل حفلة الزواج الى مساء الغد ، وبعد ما يأوي كلٌّ الى فراشهِ ، يخطف الفتاة الثير بواسطة خدم مشتبه لهُ

فاذا كان الفصل الثاني. رأينا الدون تلو في قصره ، وشقيقتهُ مهالة عليهِ باقذع النقد على ما فعل . ثم يقبل الفلاح نوتو والفق سائلا في طلب الفتاة ، فيتصنع دون تلو جهل مكانها . ولكن الثير تظهر من وراء ستار، فيثور غضب السيّد ، فيأمر خدمهُ بطرد الفلاحين ضرباً بالعصي . وعندئذٍ يلزم سائلا ، بعد اشارة منهُ ، على ان يذهب الى الملك الفرنسوي السابع ، ويطلب منهُ ان يحميهُ من عسف دون تلّو وتحكمهِ . فيذهب اليهِ يصحبهُ يلاج الماجن ، ويستأذن في الدخول عليهِ فيأذن ، فيعطيهما الملك كتاباً الى دون تلّو فيهِ ما يلي :

عند ما تصل كتابتي هذه اليك تيد ، من دون مدأورة ، الى هذا الفلاح المسكين المرأة التي سلبتهُ إياها . واذكر ان الامراء الصالحين لا يعرفون الاّ وهم بعيدون عن عينيهِ ، وانهُ ليس ثمة أمير لا ينالهُ عقاب الملك مهما يبعد عنهُ . أنا الملك

ولكن دون تلّو ما كاد يرى هذا الكتاب ، حتى أرغى وأزبد ، ورفض

ان يطيع، فيعود سالشا الى الملك ويخبره بما كان فيعزم الملك ان يذهب بنفسه لتوقيع العقاب عليه بعد حمله على احترام أوامره

سالشا — انك يا سيدي تبالغ في اكرام حظيتي . ارسل أحد قضاتك لكي يحكم بالعدل في رعاياك

الملك — ان الملك خير القضاة

ثم الاتفاق على ان يمنع سالشا ويلاج عن الكشف عن شخصية هذا القاضي فيصل الملك الى مقاطعة دون تلّو متخفيًا . فيحط رحاله عند نونو والد الثير ، فيحسبهُ هذا قاضيًا عاديًا . ويطلب الملك سرًّا الى احد ضباطهُ ان يحضر قسيساً وجلاداً . ثم يذهب بنفسه الى قصر دون تلّو ده نيرا فيقول لاحد خدمه

الملك المتكتم — اعلموا دون تلّو باني اريد ان اخاطبهُ

الخادم — واذا سألني عمن قال لي ذلك فماذا اجيب

الملك المتكتم — انا

الخادم — اليس لك اسم آخر

الملك المتكتم — كلا

فعند ما يرفض دون تلّو ان يستقبله يبلغهُ بانهُ احد قضاة القصر . فيستقبلهُ ويحدثهُ متشامخاً عليه ، محتقراً إيّاهُ

دون تلّو — يظهر انك لا تعرف من انا . ان احداً لا يجرؤ على القاء التبض عليَّ ، الاّ اذا كان الملك نفسهُ

الملك المتكتم — اذن ايها البائس — انا الملك

فتصطكُّ ركبتا دون تلّو ، ويتخاذل امام سيّده ، ولكن الملك يريد العدل فيحتم على دون تلّو ان يمنح الثير لقب زوجته وان يترك لها نصف ماله ثم يأمر باعدامه

فيصيح يلاج — هذا الملك

ويصيح سالشا — الملك خير القضاة